مشكلات التكيف فى تربية الأطفال الذين قاسوا أثناء الحرب

أنّا فرويد

فى السنة الماضية من شهر نوفمبر ألقت الآنسة أنا فرويد محاضرة بالسوربون للأونسكو(١) ، فى بعض المشكلات التربيبية للأطفال . وقد استخلصت نتائجها من التجارب التى أجرتها فى انجلترا أثناء الحرب ، مع مربيات هامبستد التي كانت تعمل مع دورثى برلنجهام . ونحن ننقل هنا ما قالته أنا فرويد .

يلوح لى أنى كنت الأولى فى التفكير فى هذه الدعوة وذلك لسببين : أحدهما أن اسمى قد اقترن بالتحليل النفسى منذ أمد بعيد . والآخر مشاركتى فى الأبحاث التى تختص برفاهية الطفل .

وقد ساعدنى إلمامى بالتحليل النفسى على معالجة هذه الأبحاث فى ضوئه ، وتتبع النمو الخلقى للطفل . ونحن لم نألف حتى عهد قريب أحقية عالم النفس فى تحدثه عن شئون التربية . وفى أوائل هذا القرن لم يكن هدف التربية تحقيق رفاهية الطفل ، بل خدمة المجتمع ؛ فكانت مراميها قومية أو سياسية أو دينية أو مستمدة من أفكار مثالية . ولم تكن هناك دراسات فى نمو الطفل النفسى ، بل لم تحظ وظيفة هذا النمو ولا الحياة الجنسية للطفل بأى اهتمام . فقد ثار قلة من الأطفال فعارضوا المجتمع أو صاروا مجرمين .

وقد كان لوالدى الفضل فى أن بدأ المعلمون يدرسون أسباب فشلهم . وسرعان ما تساءلوا فى دهشة عما إذا كانت طبيعة منهجهم فى التعلم هى السبب فى ذلك . ولكنهم ارتأوا مع ذلك أن لهم شرفاً عظيماً فى تربية البالغين ، وأن التبعة الكبرى تقع على أساتذة الجامعة .

(١) The United Nations Educational Scientific and Cultural Organization. UNESCO
لجنة هيئة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة

واليوم يبدأ البحث فى تكوين الطفل من الناحية التربيبية . ويشكو أستاذ الجامعة من مناهج التعليم فى المدارس الثانوية بسبب جهل الطلبة . ولكن معلم المدرسة الثانوية يلقى التبعة على معلم المدرسة الإبتدائية . وهذا بدوره يلوم الآباء والمربيات . ومهما يكن من أمر فان هناك شيئاً ما قد أفسد اتجاه الطفل نحو التعليم . وهكذا فيما يختص بتكوينه الخلقى . فقد ألقيت التبعة من الجامعة على المدرسة الثانوية ، ومن المدرسة الثانوية على المدرسة الابتدائية ، ومن المدرسة الإبتدائية على رياض الأطفال .

ومن المؤكد أن خلق الطفل يكون قد تم تكوينه حين يندرج فى المدارس الأولية . ولذلك يكون الإتجاه السليم الوحيد هو فى تقصى المعلمين كل من مرحلتى الطفولة المبكرة والرضاعة .

والآن ، متى تبدأ مرحلة الطفولة المبكرة ، وكيف يكون هذا الابتداء ؟ ومن هم أولئك الذين نعتمد عليهم فى الإدلاء بالمعلومات الصحيحة فى هذا الميدان ؟ إن مشكلة مدارس الحضانة تختلف من مكان إلى آخر . ففى بعض البلدان لا يسمح بالدخول فى هذه المدارس إلا للطبقة الفقيرة ، بينما هو مقتصر على أبناء الأغنياء فى بلدان أخرى ثم إننا نجد أن رياض الأطفال ومدارس الحضـــانة ليست منتشرة الانتشار الكافى .

أما المربيات الخاصة فهن لا يوجهن اهتماماً خاصاً لهذه الناحية من خدمتهن . وواجب على الآباء معرفة ذلك . ويجب أيضاً أن نقابل معلومات الآباء فى هذا الموضوع بشىء من التحفظ . فهى ليست دقيقة دائماً أو كاملة ، لأنهم غالباً ما يتقمصون شخصية أطفالهم فيبالغون .

وما ينبغى لنا عمله الآن هو أن نرجع إلى الماضى فنتأمله ونستقصيه . وقد حاولنا ذلك وكان أن شعرنا بما كان يجب أن نعرفه دائماً . نعم ، إنه كان يخيل إلى البعض منا أنه ليس من المحتمل أن نجد حلول هذه المعضلات فى تلك المرحلة بالذات ، التى لا تحفظ ذاكرتنا منها شيئاً . ومهما يكن من أمر فى هذه المرحلة المنسية (مرحلة الطفولة) تكمن تلك الحلول . والتحليل النفسى كفيل وحده بالكشف عنها . فكل حادث هام فى حياتنا إنما يبزغ من الجذور اللاشعورية ، مثل اختيار المعلم أو الزواج أو أصدقائنا أو أعدائنا . . .الخ . وقد مكنتنا ملاحظة بعض الأعراض العصابية من أن نكشف علمياً عن كيفية تأثير العوامل اللاشعورية .

إن الطفل كائن غريزى بحت ، أقرب إلى الرجل البدائى من البالغ الموجود فى جماعة متحضرة . وغزيرتاه الرئيسيتان هما غريزة العدوان وغريزة الجنس . ولا يقصد هنا قطعاً المعنى المفهوم من الجنس فى مرحلة البلوغ ولكنها على كل حال غريزة جنسية. ونشاط الطفل منحصر فى البحث عن اللذة والرغبة فى تجنب الألم . وهو من جهة أخرى ملتصق بموضوع حبه جسمياً وانفعالياً . ويكون أول حب للطفل خالياً من تلك الرقة التى نميل إلى أن نصفه بها . فحبه غريزى عدوانى . يميل إلى الامتلاك ، وتكتنفه الغيرة من كل جانب . وقد أطلقنا على هذه المظاهر عقدة أوديب .

والطفل مستعد فى مقابل ما يحتاجه من حماية وحب أن يضغط على غرائزه ويتشبه بوالديه ، وأن يتمثل قيم الحضارة . فمثلا بدون موضوع للحب يستحيل علينا أن ندربه على مراقبة عمليات التبول والتبرز . ويبدو فى هذه الحقيقة أن تعديلا بطيئاً يلحق بطبيعة الطفل الأولى وفقاً لموقف الوالدين . فيتحول حب الاستطلاع إلى مشاركة وجدانيه ، وتتسامى مظاهر العدوان إلى مستوى أعلى مما كانت فيه . وما عملية التربية إلا نتيجة عرضية لحياة الطفل العاطفية . ومن ثم فان هناك هوة فى الشعور بين الحب والغريزة .

بدأ التحليل النفسى نقده لأهداف التربية القديمة ، باسم علم النفس لا باسم الأخلاق ، مستنداً إلى التناقض الموجود بين الأخلاق وبين طبيعة الطفل التى كان عليها الإنسان فى العصر الحجرى . ولكن الطفل مفروض عليه أن يصل إلى المستوى الحالى للمدنية خلال السنين الخمس الأولى من حياته .

ما أعظم الطاقة التى يضطر الطفل إلى بذلها كى يشكل شخصيته من جميع نواحيها حتى تتفق مع مقتضيات الحضارة . فبعض الأطفال تتحطم قواهم فى هذا النضال العنيف فيعجزون عن القيام بأى عمل مباشر ، فى حين يتخذ غيرهم موقفاً عدائياً مضاداً للمجتمع أو يصبحون من المجرمين . تلك هى النتائج التى انتهت إليها نظريات التحليل النفسى حتى الآن . ولكنها لم تكن موضع ثقة من علماء التربية ، لأن اكتشافها لم يكن خلال الأطفال بل خلال المراهقين العصابيين . وقد لاحظ نقاد التحليل النفسى أن الاقتصار على هؤلاء يفضى إلى تشويه نظرتنا إلى العالم .

بيد أن التربية الجديدة استطاعت أن تشق طريقها وإن كان ببطء . وحلل بعض الآباء تحليلا نفسياً فربوا أطفالهم تربية مختلفة عن التربية القديمة .

كانت الحرب العظمى ، وكان أن تغيرت نظرة الإنسان إلى الأشياء ، وأفسدت الغرائز العدوانية العالم كله ، فكان التقدم طفيفاً حتى هذه الحرب . أما الآن فقد قطعنا بسرعة فائقة شوطاً بعيداً فى التقدم . لم يحدث أن اضطرب الأطفال بقدر ما اضطربوا فى هذه الحرب الأخيرة ، إذ عانوا أهوالا مفزعة . فلم تكن الحرب لهم مفيدة ، ولكن كانت فائدتها عظيمة لعلماء التربية ، هذا إذا أرادوا أن يتخذوا منها عبرة .

لم تكن الكارثة الكبرى فى فرقعة القنابل بل فى صدمة الفراق ، حين عبء الآباء والأمهات ، وقد كان جميل جداً أن نجد أناسا متطوعين للعناية بهؤلاء الأطفال بدلا من والديهم . وعولوا على ذلك حتى تنتهى الحرب . وقد خيل إليهم أنهم سيعاملون مخلوقات تشيع منها العاطفة والحب . ولكن هؤلاء الأطفال لم يلبثوا طويلا حتى أصبحوا عاملا فعالا فى تعكير الصفو على حياة هؤلاء المتطوعين لأن هؤلاء الأطفال حين ينفصلون عن والديهم ، يهملون النظافة ويصبحون وحوشاً صغيرة معادية . لا يبالون بالآباء الجدد ، ويحطمون الأثاث ، ويسرقون المنازل . هم متعبون للغاية حتى أن مربياتهم المتطوعات آثرن الالتحاق بالمصانع الحربية على الاستمرار فى هذه الخدمة . وقد حدثتنى احداهن بعد انتهاء يوم شاق متعب قائلة « إنه عمل مريع . ولكن يلوح لى أن الظرف يبدو أحياناً على ملامحهم » والواقع إنه يستحيل التأثير على الطفل إذا ما انفصل عن أبويه .

لقد ساعدتنى إحدى مؤسسات البر الأمريكية ، أنا وزميلاتى ، فكان أن اقترحنا مناهج جديدة . لم نفزع من سلوك هؤلاء الأطفال ، بل حاولنا فهم ما يدور بخلدهم وقلوبهم . فلم نجد فى سلوكهم هذا المضطرب شذوذاً بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة .

يمر الطفل بمراحل ثلاث : المرحلة الفمية ، والإستية الصادية[1] ، والجنسية . تتوقد فيه نزعة التلذذ بالبراز فى المرحلة الثانية فينبغى أن يتعلم التحكم فى عمليات التبول والتبرز . وفى المرحلة الثالثة يندفع الصبية نحو الغريبات ويرفعون الجزء السفلى من ملابسهن . وهذا تطور هام فى نمو الغريزة الجنسية . وهم يمارسون أكثر العادات شذوذاً مثل مص الأصابع والعبث بأعضاء التناسل . « ويخبطون » رؤوسهم فى

(١) الصادية : الميل إلى تعذيب موضوع الحب . واللفظ مشتق من أسم المركيز دى صاد الذى كان مصابا بهذا الانحراف الجنسى .

الأرض والحوائط والكراسى . تلك صورة كاملة للطفولة تتفق تماماً مع ما جاء فى ملخصات التحليل النفسى . ولكن ما العمل ؟

يبدو أن العمل الطبيعى هو تنظيم نشاط الطفل . فينبغى حينئذ أن نكون على معرفة جيدة بالساعة التى يجب أن يأكل فيها أو لا يأكل ، وبنوع الطعام الذى يحسن تقديمه له ، وميعاد نومه ولعبه . . . الخ .

وقد سمعت ذات مرة إحدى البنات الصغار تأمر الصبية هكذا « أقبض على الفنجان بيدك اليمنى ، وارفعه ، وخذ قطعة من الخبز وضعها فى فمك وامضغها » . ولكن نظام عسكرى كهذا لا يفضى إلى نتائج حميدة ، لأن الطفل يفقد حينئذ روح المبادأة ، ويعجز عن التحكم فى رغباته فيسىء إلى نفسه .

وقد خطرت ببالى فكرة مغرية وهى تكوين جماعات من الأطفال . ولكنى تساءلت بعد ذلك عما إذا كان فى الإمكان تربية هؤلاء الأطفال الذين يبلغون من العمر الثانية والثالثة والرابعة ، تحت إشراف شخص كبير . فكنا بازاء جماعة بدائية ، وكان قانون القوة هو المحرك الوحيد فى هذا النظام الإجتماعى حيث أطاع الصغار الكبار ، ولم يعتن هؤلاء بأولئك إلا إذا وجدوا فى ذلك منفعة لهم . ولكن كان يحدث أحياناً حين يصرخ أحد الصبية أن يتمكن من المحافظة على ألعابه .

وحدثنى طفل صغير يبلغ من العمر الرابعة فى دهشة قائلا « لقد أعطتنى أولجا هذه التفاحة . ولكنك تعرفين أنها تفاحة جميلة للغاية . إنها ليست نتنة على الاطلاق . فلم لم تأكلها أولجا ؟ » . فسألته « ألم تهد أحياناً أشياء جميلة ؟ » فكر الطفل ملياً وقال « كلا ، ولكن قد يكون ذلك أحياناً ، وأحياناً قليلة » .

فى هذه الجماعة المتواضعة ، وقد ترك الأطفال لأنفسهم ، لم يكن هناك وجود للشفقة أو الخجل أو الشعور بالإثم أو أية محاولة لتحسين أنفسهم أو تغييرها . كانوا من الصغر بحيث استحالت تربيتهم وسط جماعة . فأنشأنا جماعات من السيدات للقيام بوظيفة الأم ، وكانت النتيجة رائعة . نعم ، إن حب الملكية كان بادياً عليهم فى بادئ الأمر . فكل منهم يتحدث عن أمه الجديدة وكأنها ملك له . وأفرطوا فى حب الشخص المعين أو أمهم الجديدة . وكان بينهم تنافس قوى . ولكن النقائص الأخرى تلاشت شيئاً فشيئاً ، فأصبح الأطفال نظيفين ، وطالبوا بالعدالة فى المربى ، واستغلوا مقدرتهم على التفوق كى يكسبوا محبة أمهم .

وقد تسامى الفضول الجسمى ، وهو نوع من عرض الأعضاء التناسلية ، فى رغبة

إتمام الأعمال عن طريق الكتابة أو الرسم كى يكسبوا تقدير الأم الجديدة .

وانتشر بينهم رويداً رويداً نوع من الكرم ، بدأ فيه الطفل بإعطاء الأشياء التى يحبها إلى الأم الجديدة ثم إلى الأطفال الآخرين فى الجماعة ، وبعد ذلك لكل مرب .

وقد أسفر هذا الأسلوب التربيبى بمحاولاته تعديل الغريزة عن فوائد جمة . سمعت ولدا صغيراً يحدث أمه بما يكمن فى ذاته ، من تلقاء نفسه ، فيقول «لم أدفع أحداً — ولم أشد شعر أحد . فقط بصقت » . تلك هى الخطوة الأولى فى تحويل هؤلاء المتوحشين الصغار إلى أعضاء حية فى جماعة متحضرة .

وعند ما أخذنا هؤلاء الأطفال إلى قصر بكنجهام كان سلوكهم ممتازاً . ونظروا باندهاش وتعجبوا لسلوك الكبار الخالى من الأدب . فقالت بنت صغيرة ، وقد صدمت بما رأت « أنظر إلى هذه السيدة ! » وانزعج ولد صغير بسبب الأوراق التى ألقيت فى الممرات فقال « إنهم يعدون للملك استقبالا مرعباً ؟ » .

وهكذا يبدو فى النهاية أننا قد أكتشفنا علم النفس التحليلى للطفل . فقد مرت سنة ونصف سنة منذ ترك أولئك الأطفال مرابينا ، ونسونا تماماً . وهم يعيشون الآن مع والديهم كما لولم يفارقوهم مطلقاً . والآن نحن نعرف ما هى التربية الحقيقية ، وما هى التربية المستقبلة . إنها تؤسس لا على الأهداف الخارجية ، بل على الدواعى الداخلية لشخصية الطفل . إن اليتامى المشردين يقدمون للمعلمين مادة رائعة . ولكن من الخير جداً أن تكون التربية فى العائلة لا فى المدرسة .

بقيت كلمة أخيرة عن الفهم الجديد للتربية الذى بواسطته يأمل الأونسكو تحقيق أهدافه لاستتاب السلم . أو ليست أماننا الحارة هى التى تجعل ذلك الهدف قابلا للتحقيق عملياً ، بل يجب أن نبحث عما يتفق وذلك الهدف فى طبيعة الطفل .

ليس هناك مخلوق أكثر دولية من الطفل . إنه لا يفرق بين الطبقات والعناصر ، ولا بين الحيوانات والرجال والآلهة . بل إن الإختلاف فى الحجم أو الجنس أكثر أهمية له .

ولكن الطفل مع ذلك يميل إلى العدوان والمنافسة . إنه يلتمس فى أنظمة البالغين ما يسمح له بأن يطلق العنان لعدوانه دون أن يتعرض للعقاب . وقد صار الطفل فعلا فى المدارس الأولية وطنياً ، وخاضعاً لروح الفصل .

وقد سمعت ولدين صغيرين يتناقشان فى اهتمام بالغ واعترف أحدهما للآخر

قائلا « لقد أخذت بندقيتى وأردت أن أقتل جون . . . ولكنهم يقولون إنك إذا قتلت سجنت . » فهز الآخر كتفيه فى كبرياء وقال : « يا لك من غبى — ما عليك إلا أن تقول إن جون ألمانى . فاذا قتلته منحوك وساماً » .

وإذن فما على الأونسكو إلا أن يهتم أولا وقبل كل شىء بطبيعة غريزة الطفل وبالمنهج الذى نرجو بواسطته أن يحقق إعلاءها » .

ترجمة

مراد وهبة